هجرة علماء غريس و تلمسان إلى فاس في العهد العثماني

أ.د.كمال فيلالي،
مختبر الدراسات والأبحاث الاجتماعية
والتاريخية لحركات الهجرة،
جامعة قسنطينة.

الملخص:

لقد كانت هجرة العلماء و رجال الدين إلى فاس مبكرة و ذلك لما كانت تحتله هذه المدينة من مكانة دينية و علمية مرموقة منذ مطلع القرون الوسطى إذ كانت مشتلة للإشراف, منبرا للدعوة الإسلامية و مزارة كبرى للأولياء و الصالحين و ملتقى طرق السياحة. و قد زادت وتيرة الهجرة الدينية و العلمية إلى فاس بعد الغزو الاسباني لسواحل وهران في مرحلة أولى وتفاقمت بعد الحملات العثمانية الأولى على تلمسان.

وسنحاول من خلال محاضرتنا هذه إظهار الدور الذي لعبته فاس في احتضان الهجرة العلمية و الصوفية وصدارة الرياسة الدينية بعد أن كانت تلمسان عاصمة الزهد و الفقه المالكي.

مقدمة:

لقد بدأت الهجرة الدينية من الغرب الجزائري إلى فاس في منتصف القرن الخامس عشر وكانت في البداية فردية و حرة بدافع الرغبة في التعلم و ملازمة العلماء و المبارزة و السياحة ومجاورة قبور الأولياء, لما كانت تلعبه فاس احد روافد الشرفية في المغرب الاقصى, من دور الريادة في العلوم النقلية أو المنقولة بعد أن بزغ شمسها في عهد الأدارسة و زادت اشرقتها في مطلع القرن الخامس عشر. فكان إبراهيم التازي القطب الصالح والولي الزاهد قد هاجر إلى فاس واستقر بها قبل غزو الأسبان بلاد المغرب إلى أن توفي بها سنة 866 ه. وهو إبراهيم بن محمد التازي نزل بوهران و درس بها ثم عاد إلى تونس حيث أخد عن الشيخ عبد الله العبدروسي, وبعد إن حج هاجر إلى تلمسان ليلازم الشيخ محمد ابن مرزوق فأجازه ,واستقر بفاس زاهدا و عالم بقية أيام حياته.

و ذكر صاحب *"الأس"* أن هجرة المغراويين التلمسانيين لفاس زادت بدخول الأسبان وهران. تقدم فيهم الشيخ العالم قاضي ومفتي فاس وعميد علمائها وخطيب جامعها الأعظم و شيخ الجماعة بها ، أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمن المغراوي, الذي هاجر إلى فاس سنة958ه، زمان السلطان أبي عبد الله محمد الشريف السعدي. (الكتاني محمد جعفر:113) ولما دعا صيته بفاس، قلده السلطان رئاسة الإفتاء والتدريس والخطابة بجامع الأندلس, زمن أبي زيد عبد الرحمن ابن إبراهيم

الدكالي, لمدة طالت الثمان سنين ثم بجامع القرويين ثلاث عشرة سنة. وكان يلقب بإمام الأئمة، متضلعا في المنطق والعقائد والبيان والفقه والحديث والتفسير، كما كان مرجعا لا يستغنى به في الإفتاء. في فاس استفاد وأفاد, فأخذ عنه الشيخ أبو المحاسن الفاسي ولازمة كثيرا وقرأ عليه التفسير والأصول والفقه، و"الكبرى" و"الصغرى" للسنوسي. قال ابن مريم: " انه أخذ أيضا عن الشيخ الإمام الزاهد أبي عثمان الكفيف، وعن الشيخ السنوسي، وعن الشيخ أبي العباس ابن زكري. وكما أخذ الشيخ أبو المحاسن عنه عقائد التوحيد، وكان ماهرا كما شهد له اليسيتني ": إنه كان من العلماء الراسخين في علوم الدين وخطيبا بالقرويين ومفتيا بها (ابن مريم: 261) وطالت أيام رئاسته بفاس إلى أن توفى سنة981ه. (ابن عسكر: 104.)

كما كانت هناك هجرات قصرية أخرى سببها الحروب والغزوات وأغلب هذه الهجرات الجماعية نحو فاس جاءت بعد فشل الحملة السعدية سنة 957 ه على تلمسان(ابن عسكر: 104.), إذ رافق السلطان السعدي عند عودته إلى بلاده نخبة من العلماء ورجال التصوف الذين كانوا قد أيدوا تدخله بتلمسان (السملالي:ج5، 147.). حدثت هجرة جماعية كبيرة أخرى سنة 968ه على اثر حملة خير الدين على تلمسان التي أشعلت نار الفتنة التي حدثت جراء انقسام علماء تلمسان بين مؤيد ومعارض للترك.(Filali Kamel:2002.)

وعن الحملة السعدية المناوئة للترك قال السملالي :«...قد كان استيلاء حسن خير الدين التركي على تلمسان بعد انقراض بني زيان منها سنة 952ه ، فلما فتح محمد الشيخ حضرة فاس ثاقت نفسه للاستيلاء على المغرب الأوسط إذ كان يعز عليه استيلاء الترك على بلاد المغرب خاصة و أنهم عجم، تحالفوا مع ألد أعدائه، أبو حسون الوطاسي الذي لجاء إليهم وغزا تلمسان ودخلها يوم 23 جمادى الأول سنة 957ه . (السملالي:ج5، 147.)

ومن المؤيدين للحملة السعدية نذكر احمد العبادي الذي حل بفاس واستقبل بحفاوة من سلطانها و فقهائها، إذ قدم له السلطان هدية مالية قدرها ألف مثقال و أقامه في إقامة مريحة وأمر أن برفع شأنه على البقية فقال:" لا تساووه بأحد من الفقهاء فان همته أكبر من ذلك".(ابن عسكر: 106.)

من الشخصيات المرموقة التي بجدر التنويه بها من الذين هاجروا إلى المغرب الأقصى رفقة السلطان السعدي بعد فشله في حملته على المغرب الأوسط، نذكر محمد بن أحمد التلمساني المدعو ابن الوقاد التلمساني وهو أبو عبد الله بن أحمد، المعروف بإبن الوقاد، ولد في تلمسان ونشأ بها و تتلمذ على كبار شيوخها. فأخذ عن الإمام التنسي وعن بن شقرون وبن الوجدي، مفتي مراكش، وعن ابن جلال والبسيتني وابن أبي عمران موسى المشدالي، وأبي عبد الله بن عبد النور وإبراهيم السلوي الكتاني وأبي عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط وأبا إسحاق الطيار ...ألخ. وحل بتارودنت من بلاد الريف بالمغرب، وولي بها قاضيا للجماعة لمدة قصيرة، ثم أرسل به إلى سجلماسة قاضيا ومنها أنتقل إلى مكناسة وتولى مهمة القضاء والخطابة بجامع الأندلس. وظل يتنقل بين مكناسة و فاس ومنها عاد لتارودانت ليستأنف الإفتاء والخطابة. توفي محمد بن أحمد التلمساني سنة ثمانية عشر وألف. (ابن مريم: 254)

ومن أهم علماء تلمسان الذين رحلوا رفقة السلطان السعدي نذكر أيضا محمد بن شقرون الوجديجي الذي ولد بتلمسان908ه ونشأ فيها، اعتبره صاحب الدوحة من أكابر فقهاء المالكية في عصره حتى عرف بمالك الصغير في وقته (السملالي:ج5، 171.). أخد عن المشايخ الكبار كالشيخ البرجي وتفقه على الشيخ أحمد المقري، وإبراهيم الشاوي والشيخ أبي العباس ابن زكري الذي أخد عنه علم الكلام. (ابن ميمون:71.)

الفقيه ابن جلال كان من بين علماء تلمسان الذين هاجروا بعد الفتنة التي حلت سنة967هحول الوجود العثماني، وكان له شأن كبير عند الأمير السعدي عبد الله بن محمد، وقلده الفتوى والرئاسة بالمسجد الاعظم بمراكش. وكان يحضر مجلسه الأمير السعدي شخصيا. (السملالي:ج5، 172.) وقد وصف الحفناوي ابن جلال بالعلم والولاية في تلمسان وفاس قال أنه : «كان إمام الأئمة وحبرا من أحبار الأمة... » (الحفناوي:147.) توفي ابن جلال بفاس سنة 981ه وعمره ثلاثة و سبعين سنة. (ابن عسكر: 105.)

محمد بن الحاج بن أحمد بن الشريف التلمساني كان ممن لجئوا إلى فاس. (الكتاني محمد جعفر:337) وكان فقيها عالما بمختلف العلوم الفقهية, أخد عن

الكثيرين أمثال محمد بن أحمد بن مليح السراج و الشيخ محمد بن أبي بكر الحرار الأنصاري، والشيخ محمد بن عبد الله ابن سماك العالمي والشيخ محمد بن محمد العكاري المراكشي والشيخ محمد بن عبد الخالق الشرقي.كان محمد التلمساني جامعا بين في علوم الباطن الظاهر، له تأليف في الفقه والتصوف. (السملالي:ج5، 357.) دخل فاس لجاءا مع الجمع من العلماء والأعيان الذين رافقوا الأمير السعدي الذي ولاه الخطابة في الجامع ومنح له إقامة مريحة طيبة.

ظل في فاس خمسة سنوات ثم رحل إلى مراكش قصد التزود بالعلم، فدرس بها إلى أن توفي سنة 989ه و ضريحه مزار. (الكتاني محمد جعفر:337)

وقدحلت الهجرة القصرية الثالثة في عهد بايات الغرب. أذ حاول العثمانيين من خلال سياستهم الدينية تشديد الرقابة على العلماء ورجال التصوف المعارضيين لسياستهم مما أدى بالعلماء والمتصوفين الحقيقين وليس بأدعياء الولاية, كما يقول عبد الكريم الفقون (عبد الكريم لفثون: 54), إلى النفور والهروب إلى عواصم العلم ومقاصد الحكمة. يقول ابن عساكر في "دوحته" أن أشهر علماء تلمسان وغريس أخذوا طريق الهجرة بعد غزوة الترك على الغرب. ففر خيرة العلماء و رجال التصوف إلى فاس وكان أهمهم الشيخ الأنصاري السجلماسي يؤكد الكتاني أن هذا الأخير, هروبا من جور الترك لجأ إلى الحج وفي طريقه توقف بالقاهرة فأخذ في الأزهر عن احمد الغنيمي وأحمد بن عبد الوارث البكري ثم عاد إلى فاس واستقر بها فقيها إلى أن وافته المنية. (الكتاني محمد جعفر:ج2، 363)

وقد كان اضطهاد العثمانيين للعامة و الخاصة من العلماء في الجزائر هو أهم أسباب هجرة العلماء ورجال الدين في العهد العثماني. خاصة وأن سياسة البايلك مزجت بين السياسة والدين فجعلت من مهنة الإفتاء والقضاء مهنة دينية وسياسية على السواء وفرقة بين قضاء الأهالي وقضاء العجم من ترك وكراغلة. و كل عمل ديني أو سياسي لا يصب في نطاق السياسة الدينية العثمانية كان يعتبر مسا بنظام الحكم ويلقى صاحبه أكبر عقاب وأبطش جزاء. كما أن البايات والدايات لم يكونوا يطيقون استقطاب الأولياء والعلماء احترام العامة من الشعب وولائهم للسلطة الروحية لان ذلك في تصورهم وفي الواقع يهدد وجودهم بالجزائر.

فابن للو مفتي الجامع الأعظم بتلمسان, وهو من كبار فقهائها ، هاجر إلى ضواحي غريس نتيجة لسوء معاملة الحكام العثمانيين له و يذكر أن قائد الزمول التركي أراد استرضائه بالهدايا و عرض عليه مناصب إلا أنه قرر الهجرة ثانية. وتقول الرواية أنه ثار لغصب القائد ، الذي لم يتقبل رفض عروضه, فأمسك بلحيته ونتف شعيرات منها و أقسم أن يهجر إلى بلاد النصارى. (أبو القاسم سعد الله: ج1 ، 428) فأتجه إلى معسكر حيث توجد طائفة تستعمل أسماء أعجمية فقال: "هنا تبرأ يميني".(أبو القاسم سعد الله: ج1 ، 428)

ومن أشهر العلماء الذين هاجروا إلى فاس الفقيه العَّلامة أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن محمد الأنصاري السلجماسي(محمد الافراني المراكشي:214). رحل بعد الأربعين من تسع مئة من بلاده هروبا من ظلم الأتراك أيضا ، فحج ودخل مصر في سنة 943ه، وأخذ بها عن أحمد الغنيمي وأحمد بن عبد الوارث البكري وعن النور علي الأجهري ثم عاد إلى فاس عالما.

وفي فاس جالس خيرة العلماء فأخذ عنهم ولازم الأستاذ أبي محمد عبد اللّه بن علي الحسني السجلماسي والعالم الولي أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي الصنهاجي، وحافظ العصر أبي العباس أحمد بن محمد المقَّري التلمساني، وبلغ الغاية القصوى في الرواية والمحفوظات و رحل إلى الجبل الأخضر حيث السنوسي و بقي هناك إلى أن وافته المنية. (الحفناوي:78.)

وقد استمرت الهجرة إلى بلاد المغرب خاصة في عهد حسن باشا الذي نقم كثيرا على بعض علماء الجزائر من غير الموالين للحكم العثماني الشيء الذي دفع بالبعض منهم إلى الهجرة. أمثال ابن تكوك.

هو الشارف بن الجيلالي بن تكوك من بلد مستغانم، نشأ وتعلم بها كان فقيها عالما متضرعا في مختلف العلوم النقلية. ويقال عنه أنه قريب الشيخ محمد بن علي السنوسي، أسس لطريقته زاوية مازال توارث أبناءه خلافتها ، وكانت تنشد فيها قصائد السنوسي الغوثية.

هاجر بن تكوك من الجزائر إلى المغرب الأقصى في نفس الظروف التي هاجر فيها شيخه محمد بن علي السنوسي، فبعد أن قتل الباشا حسين شيخه ابن القندوز التوجيني، رثاه قبل أن يهجر الجزائر في اتجاه فاس قائلا:

ارحم شيخي بالقندوز	❖	مريد الشيخ المعزو ز
يا رب عذب حسن	❖	بركة بيت الله تعيان
بالنصر ثبت يدا	❖	ازجر علينا الأعداء
ما يعرفوش الردا	❖	أصحاب الدنيا الفانية
وبسورة الإخلاص	❖	الفالق مع الخناس
أمنعني من الوساوس	❖	فلا يقرب ليا (الراشدي:51)

وكان من العلماء المغوليين في العلم من يهاجر بحثا عن المباراة ة والمناظرة مثل أبوراس الناصري المتوفى سنة 1150 ه. بعد وفاة أبوه انتقل إلى معسكر لدراسة الفقه واللغة والحديث، ومنها رحل إلى مدينة مازونة فدرس على فقهائها مختصر خليل وحفظه وفهمه معنى ولفظا وكانت هجرته إلى مازونة لشغوفه بعلمائها ولتفوقها في الفقه المالكي إذ يقول:"ولما ذكر لي مازونة وكثر مجالسها وقريحة أشياخها سافرت إليها ".(محمد بن أحمد ابي راس الناصري:20.) وفي مازونة، درس على كبار فقهاء منهم الشيخ مصطفى بن هني والشيخ محمد بن إبراهيم والشيخ مصطفى بن يونس،كما قرأ الفرائض على الشيخ البدالي والقضاء والشهادات على يد الشيخ محمد بن عبد القادر. (محمد بن الطيب القادري:116.)

وبعد إجازته رشحه الشيخ المشرفي أمام الراشدية في معسكر ليكون خليفته في التدريس. اعتلائه منبر الراشدية زاده هيبة بايات الغرب الجزائري، الذين أصبوا يخصونه العناية والتبجيل الكبيرين. (محمد بن الطيب القادري:184.)

وقد بدأ مشوار رحلته من تونس فدرس النوزال على الشيخ القاضي سيدي محمد بن قاسم المحجوب، ولم يكتف بدراسة فقه المالكية بل اهتم بفقه المذاهب الأخرى على يد شيوخ تونس فواصل هجرته إلى الحجاز عن طريق مصر. (محمد بن الطيب القادري:241.)

هاجر أبو راس إلى المشرق مرتين فزار بلاد الشام والحجاز ومصر والتقى بعلمائها في القاهرة، ثم عاد إلى فاس ، ولم تكن رحلته إليها هذه المرة للتدريس بل للمناظرة في المسائل الفقهية. وكان جد فخورا بمباراته العلمية ومرتاحا بوجوده في مجالس الذكر والمذاكرة.

فبشأن مناظراته العلمية يقول: "ففي تونس اجتمعت بعلمائها و أجلة فقهائها فتذاكرنا وتناظرنا وترافعنا .... و في القاهرة لقيت بها كبار العلماء من أهل المعرفة فتناظرنا و تذاكرنا في مسائل جمة فارتفع ذكري وأزداد فخري... وفي فاس، أحضر العلماء الأعيان وشيخهم حافظ العصر السيد الطيب بن كيران موضوعات المناظرة ولقيت الفقيه النبيه الشيخ محمد بن بنيس بحثت معه في تفسير بن عطية...". (محمد بن الطيب القادري:150.) وبعد عودته من سياحته وشي به لدى الباشا واتهم بالعمالة، فعزل من منصبه عام 1211ه فعاد ثانية إلى المغرب الأقصى واستقر بفاس.

بعد ثورة الدرقاوي ونظرا لصبغتها الدينية صار الأتراك يخشون جميع رجال الدين وحتى الموالون لهم كأبي رأس الناصري الذي عزل من مناصبه الرسمية كالإفتاء والقضاء كما سبق أن ذكرناه، وقد ألف في هذه الثورة" درء الشقاوة في فتنة درقاوة". كما أخر وهلل بانتصارات الأتراك العثمانيين على الأسبان و استرجاع مدينة وهران.

على العموم كانت الهجرة إلى فاس في القرنين الميلادين الثامن عشر ومطلع التاسع عشر، بسبب الثوارات الدينية التي أشعلت فتيلها التجانية في نهاية القرن الثامن عشر لتزيد لهيبها الدرقاوية في مطلع القرن التاسع عشر، وكانت هذه الثورات سبب هجرات فردية كثيرة أهمها هجرة أحمد التجاني دفين فاس.

ولم تنقطع الهجرة العلمية الفردية إلى فاس طيلة العهد العثماني فقد رحل سيدي عبد الرحمان المجاجي صاحب كتاب "التبريج في أحكام المغارسة والتصبير والتوليج" من تلمسان إلى فاس وهنالك أخد عن الشيخ محمد بن علي وشرح "المغوفلات لابن الحاجب، وله حاشية على مختصر أبي جمرة في علم الحديث(الحفناوي:224.).

مهما يكون من أمر فان الهجرة الدينية والعلمية الجزائرية في العهد العثماني إلى فاس ساهمت في إثراء العلوم المنقولة و جعلت من العاصمة الادريسية منارة ليس في علم الفقه والأصول فحسب، بل أيضا في علم التصوف، ألم يختارها أحمد التجاني مقاما أبديا له؟

قائمة المراجع و المصادر

- الحفناوي أبو القاسم، تعاريف الخلف برجال السلف ط2 ، مؤسسة الرسالة بيروت 1985.
- الكتاني الشريف عبد الكبير ، زهرة الأس في بيوتات أهل فاس، تحقيق ، على بن المنتصر الكتاني، مطبعة النجاح
- محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس و محادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء و الصلحاء بفاس ، طبعة حجرية.
- ابن عسكر محمد الحسيني ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن 10 ه ط2 ، دار المغرب للتأليف و الترجمة و النشر، الرباط 1977.
- الأفراني محمد بن محمد بن عبد الله الصغيرة ،صفوة إنتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر ، تقديم عبد المجيد خيالي ، مركز التراث الثقافي المغربي الدار البيضاء المغرب.1979
- إبن مريم أبي عبد الله محمد ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية 1982.
- الراشدي أحمد بن سحنون، الثغر الجماني في إبتسام التغر الوهراني، تحقيق ، المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث الجزائر 1973.
- إبراهيم السملالي المراكشي، الإعلام لمن حل مراكش و أغمات من الأعلام ط2، المطبعة الملكية الرباط 1422- 2001.
- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الهجري إلى الرابع (16-20م)ج1 ،ج2 ط1 ،الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.

سعيدوني ناصر الدين و المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ الجزء الاول- العهد العثماني- ،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

- إدوارد دونوفو، الإخوان دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر ترجمة ،د. كمال فيلالي، دار الهدى، الجزائر، 2002.
- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الأثار في التراجم و الأخبار ط1 ، ضبطه و صححه ، إبراهيم شمس الدين، بيروت، 1997.
- عبد الكريم لفثون ،منشور الهدايا، تحقيق أبو القاسم سعد الله، الغرب الاسلامي بيروت، 1984